

حول كتاب " قضية خلق العالم لدى أبي منصور الماتريدي وسياقها العقلاني والتاريخي " للأب سليم دكاش

Pendant ma formation religieuse j'ai été partisan de l'école jurisprudentielle *d'Abou Hanifa* qui privilégiait les sources qui s'appuient sur le raisonnement individuel au détriment des sources textuelles incertaines. Il était donc logique qu'en matière de théologie que je m'inscrive à l'école *d'Abou Mansour Al Maturidi* pour la même raison qui fait de cette école appartenant au sunnisme un très d'union entre le *mutazilisme* et l'*Acharisme*.

Arrivant à la formation universitaire et par un esprit de reconnaissance à l'école *Maturide* qui m'a sauvé des doutes qui ont marqué mon adolescence, je me suis inscrit à la faculté de théologie..mais au bout de quelques semaines j'ai du changé mon orientation pour poursuivre des études juridiques, en suivant l'exemple de l'Imam *Abou Hanifa* qui a abandonné la théologie pour se spécialiser dans le *fiqh*.

Depuis cette date j'ai trahi en quelques sortes ma première formation théologique. Lorsque Père *Daccache* m'a demandé de participer à la table ronde autour de son livre sur *Al Maturidi* j'ai accepté toute de suite en pensant que cela pourrait m'introduire à nouveau dans l'esprit de l'école *Maturidite*. C'est donc en tant que juriste hanafite attaché au *maturidisme* que je participe à cette table ronde.

Si l'écriture dans la science de *ilm al kalam*, particulièrement la traduction des notions et mots de l'arabe en français est pénible pour un emmenant spécialiste de cette matière comme Père *Daccache*, comment donc une personne ordinaire peut discuter de ses sujets. C'est en cherchant les rimes de pénibles comme horrible terrible incompréhensible que j'ai trouvé l'adjectif que ressent une personne qui lis la première fois les ouvrages de *ilm al kalam*.

Pour ces raisons je m'exprimerai en arabe pour ne pas tomber dans les fautes de traduction comme c'était le cas de beaucoup de chercheurs arabophones qui ont travaillé avec le Professeur *Thillet* que Père *Daccache* connaît bien. Une de ces anecdotes qui m'a raconté le Professeur *Thillet* est

lorsqu'il avait demandé à un chercheur arabophone de lui traduire les deux mots تصديق et تصور, il lui a traduit par photographe et légaliser.

قبل الشروع في الدخول بموضوع هذا الكتاب عن أبي منصور الماتوريدي وقضية خلق العالم فإنني أقدر هذا الجهد الجبار الذي قام به الأب سليم دكاش في كتابة هذا المؤلف الذي جاء تنويجاً لأبحاثه الجامعية وهو يعتبر بحق مرجعاً فرنسياً ندر أن يكتب مثله بهذا الموضوع . فالى جانب مشاكل نقل معاني علم الكلام إلى اللغة الفرنسية يعترى الباحث في مثل هذه المواضيع مشاكل جمة من أهمها اختلاف المنهجيتين العربية والأجنبية في كتابة المعارف الدينية ، إلى جانب الأسلوب المقتضب والمختصر جداً في التعبير الأصولي للمتكلمين إذا ما قورن بالأسلوب الأدبي. وقد جاء تبويب البحث وترتيب الأفكار في هذا الكتاب متوازناً ومتلائماً جداً مع المنهجية الفكرية للبحث العلمي. غير أنه لو كانت لي ملاحظة وهي بالطبع لا تجرح ابداً من القيمة العلمية للكتاب ولكنها ناتجة عن قراءتي وحساسيتي الإسلامية لهذا الموضوع فلأبين بأن الباحث المسلم عندما يستشهد بالقرآن الكريم يقول بأنه قول الله تعالى والباحث غير المسلم حين يستشهد به يقول بأنه جاء في القرآن الكريم وذلك مراعاة لحساسية القارئ المسلم، وأن القول بأن الرسول محمد ذكر في القرآن الكريم يمس شعور المسلم الذي لا يعتبره من كلام الرسول وإنما من كلام الله تعالى ، هذا من جهة ومن جهة أخرى لاندرج قول الرسول فيما جمع من أحاديث نبوية على جهة الحصر. ملاحظة أخرى في استشهاد الأب سليم دكاش بالأب يواكيم مبارك في نهاية الكتاب عن محنة النبي إبراهيم بالتضحية بإبنة إسحق وشهادته بالإسلام بمعناه العام فإنه كما ثابت لدى علماء المسلمين بأن تضحية سيدنا إبراهيم كانت لابنه اسماعيل وليس لإبنة إسحق لذلك سمي النبي محمد بأنه ابن الذبيحين باعتبار نسبه من سيدنا اسماعيل ومن والده عبد الله.

حتى لا أدعي منذ البداية بأنني أملت بكل ثنايا الكتاب فإن ما استرعى انتباهي هو زبدة ما جاء في آخر الكتاب وهي الخاتمة العامة والتي خصصها الأب دكاش عن موقع الإمام أبي منصور الماتوريدي في علم الكلام حيث خصصه للحديث عن معنى الاختيار والمحنة وعن التواصل والإفتراق بين الماتوريدي والمعتزلة، وعن الحكمة الربوبية للمقاربة مع الفكر الكلامي للماتوريدي وأخيراً مسألة الخلق في المفهوم الإسلامي وفي مفهوم الأمام الماتوريدي.

ولعلي أتوقف على ما جاء في الصفحات الأولى من كتاب التوحيد للإمام الماتوريدي حيث يتحامل بعنف على التقليد الأعمى، فلا يصح لمتكلم يعتقد بعقله ويفهم دينه حق الفهم أن يكون إمعة لغيره من المتكلمين أو الفلاسفة، لأن الحكمة الدينية تكمن في أبسط صورها بأنها فهم عقلي وقراءة عقلية للنص الديني ، وليست مطلقاً تقليداً فكرياً إذ أن التقليد يميت العقل، لذلك كان الاختيار هو سمة الإنسان المميز فאלله تعالى يمتحن الإنسان من بقية المخلوقات، وهنا أود أن أشير عرضاً إلى أن المسؤولية والاختيار كانتا لصيقتين بالإنسان ولست أقول بالبشر إلا إذا عنيت بأن البشر هم أصل الإنسان. لعل هذه المفارقة يعترض عليها بعض المفكرين الإسلاميين ولكنني أذكرها هنا مشيراً إلى أن أول من تكلم بها هو د. عيد الصبور شاهين حيث لاحظ بأن اللغة العربية هي اللغة الوحيدة التي فرقت بين البشر والإنسان ، فكلما ذكر البشر ذكرت الخليفة الأولى وأنه كائن مخلوق من طين، وكلما ذكر الإنسان ذكر التكليف والاختيار والمحنة لذلك كان النداء القرآني متوجهاً إلى الناس : "يا أيها الناس" يا أيها الإنسان" ولم يتوجه الخطاب القرآني إلى "البشر"، كمثل أن يقال : "يا أيها البشر".

هذه المحنة كما يلاحظ الأب سليم دكاش بأنها تفترق عن التكليف بأن التكليف لدى الماتوريدي له دلالة شرعية حصرية خاصة وهي تتعلق بتأدية الفرائض الدينية والاجتماعية مما يستدعي وجود وحي ونصوص فقهية متعلقة به ، وأما مفهوم المحنة فإنها مفهوم شمولي تقتض وجود خيار و فعل.

وأعود إلى الحديث عن قبح التقليد الأعمى إذ أنه يحيل إلى الإعتماد على العقل وهذه من السمات الأساسية للمنهج الماتوريدي : فمنهج الإمام أبو منصور يعرف بأن للعقل فيه سلطان كبير ولكن من غير شطط أو إسراف، فهو يأخذ بحكم العقل فيما لا يخالف الشرع فإن خالف الشرع فلا بد من الخضوع لحكم الشرع، ومما يذكر بأن الإمام أبو منصور الماتوريدي يرى بأن العقل أقدم من الوحي وأن الإنسان قبل الوحي كان يعتمد على العقل اعتماداً كلياً ، وحتى بعد نزول الوحي فإن الوحي يعتبر خطاباً موجهاً إلى العقل، فالعقل يسبق السمع. لذلك فمما انفرد به الإمام الماتوريدي عن مذاهب أهل السنة الكلامية هو قوله بأن معرفة الله تتم عن طريق العقل حتى وإن لم يبعث الله بأنبيائه ورسله إلى الناس. وهذا ما يفرق أيضاً بين معرفة الله وبين معرفة العبادات إذ أن هذه الأخيرة تتم عن طريق السمع.

وكي لا أطيل فإنني أقفز إلى موضوع حدوث العالم ، فقد انقسمت آراء المتكلمين بالنسبة لقدم العالم وحدثه إلى ثلاثة أقسام :

١. طائفة من الفلاسفة رأيت بأن العالم قديم من جهة المادة والصورة ، حيث لا يمكن أن يكون لهما من مبتدأ ، فالعالم بالنسبة لهم قديم من حيث مادته وصورته، وهو ليس معلولاً لعلّة سابقة عليه لأنه ليس مسبوقاً بشيء، فهو قائم بذاته من الأزل غير معلول لعلّة مباينة له

٢. وفريق آخر من الفلاسفة يرى بأن مادة العالم قديمة، أما صورته فإنها حادثّة، فيكون العالم حادث لكن أصله أو مادته الأولى = الهولي قديمة.

٣. والطائفة العظمى من المتكلمين وعلى رأسهم الماتوريديّة ترى بأن العالم حادث بعد أن لم يكن سواء من جهة مادته أو من جهة صورته.

فمذهب الإمام أبو منصور يتمحور حول فكرة أن العالم حادث وهو أي العالم جميع ما سوى الله من الموجودات من الأعيان والأعراض. وإذا كان المتكلمون يقسمون العالم إلى جواهر وأجسام وأعراض فالماتوريدي يرفض هذا التقسيم ويعتبر أن العالم أعيان وأعراض والأعيان هي الموجودات القائمة بنفسها أما الأعراض فإنها تقوم بغيرها لاستحالة قيامها بنفسها، والقائم بنفسه هو ما يصح وجوده في غير محل يقوم به ولهذا قام جميع العالم لا في محل، أما الأعراض فإنه يستحيل وجودها في محل، فمن المستحيل أن توجد حركة أو تقوم بمعزل عن المتحرك. وقد فرق الماتوريدي بين القديم والحادث بأن القديم ما لا أول لوجوده أما المحدث فهو ما لوجوده ابتداء أو ما لوجوده أول، أي أن وجوده متأخر عن وجوده الأزلي.

يضاف إلى ذلك وهو ما انفرد بذكره الماتوريدي بأن الكمال والنظام يثبت بأن العالم محدث كما يقول المتكلمون ولكن وجود الشر والزلازل والبراكين ونوائب الدهر هي دليل على أن العالم لم يصنع نفسه وأن غيره هو الذي أحدثه، فلو أن العالم صنع نفسه بنفسه لمنح نفسه كل صفات الكمال ولكان كذلك دائماً لكن الحاصل غير ذلك وهذا يدل على أن للعالم محدثاً.

وإذا كان العالم حادثاً فلا بد له من محدث وهذا المحدث لا بد أن يكون إلهاً واحداً. والدليل على وحدانيته هو السمع والعقل وشهادة العالم بالخلقة، وهي كلها تعتمد في الأغلب على دليل الغلبة والتمانع كما تعتمد على فكرة تناهي العالم . هذا الرابط بين حدوث العالم وبين وحدانية الخالق لاحظته الأب سليم دكاش عند معظم المتكلمين المسلمين وليس فقط عند الماتوريدي.

أما الأدلة السمعية على الوحدانية فهي الآيات القرآنية التي ذكرت امتناع وجود أكثر من إله خالق لهذا الكون مثل قوله تعالى " لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا"، وأما الدليل العقلي على الوحدانية فإن له أوجهاً متعددة مثل الربط بين العدد واحد والتناهي من جهة و لا تناهي الأعداد، وهو الربط بين المتناهي والحدوث وبين إمكانية التناهي ولا تناهي العالم. لا تناهي الخاص بالعوالم يفترض لانتهاى الالهة ولا تناهي الالهة يتعارض مع أن يكونوا جميعاً على مستوى واحد من العظمة والجمال والكمال ومن ثم فلا بد من وجود إله يعلو الجميع ويكون هو وحده لاسواه محدثاً للعالم.

وبعد مقاربة ومقارنة مع مذاهب الفلاسفة والمتكلمين من معتزلة واشاعرة وآراء الإمام الغزالي في موضوع الخلق والصفات يذكر الأب سليم دكاش بأن أنتقاء الألفاظ التي اتبعتها الماتوريدي هي مستعارة من عبارات الفلاسفة الأقدمين وذلك بهدف الوقوف على مفاهيم مشتركة ومن أجل إيصال الفكرة إلى الآخر. وهذه التعابير ليست مستمدة دائماً من التعابير القرآنية مثل كلمة إحداث تكوين إبداء إيجاد وإن كانت مستخدمة لتأويل الآيات القرآنية التي تتحدث عن الخلق . وإذا كان الماتوريدي لم يضيف أي عبارات جديدة في موضوع خلق العالم غير أنه كرس في تاريخ علم الكلام استخدام مصطلحات معينة متعلقة بهذا الموضوع مثل : من لا شيء ، لا من شيء ، لا من أصل ، الإمكان كائن معدوم .

والمسك في ما ختم به الأب دكاش من كلمات أخيرة في كتابه عن الماتوريدي عندما تكلم عن الثابت والمتغير الكلامي وعن مدلول اللغة الذي هو حبيس عصره والظرف الذي كتب فيه ، و يبقى المعنى الجمالي والأسمى الذي يلتقي فيه كل المتكلمين على حد سواء وهو معرفة الله والإيمان بربوبيته المطلقة ، يذكرني هذا العطر اللفظي الذي قاله الأب سليم دكاش بما ذكره الإمام المصلح الكبير محمد عبده في حاشيته على شرح العقائد العضدية بعد أن برهن على حدوث العالم وأخذ في الاعتذار عن تعجز عقولهم عن تصور معنى الحدوث والزمان، يقول : " واعلم أنني وأن كنت برهنت على حدوث

العالم وحققت الحق فيه، على حسب ما أدى إليه فكري ووفقني عليه نظري، فلا أقول بأن القائلين بالقدم قد كفروا بمذهبهم هذا، أو أنكروا به ضرورياً من الدين القويم، وإنما أقول أنهم قد أخطأوا في نظرهم، ولم يسددوا مقدمات أفكارهم، ومن المعلوم أن من سلك طريق الإجتهد ولم يعول على التقليد في الإعتقاد، ولم تجب عصمته فهو معرض للخطأ، ولكن خطؤه عند الله واقع موقع القبول، حيث كانت غايته من سيره، ومقصده من تمحيص نظره أن يصل إلى الحق ويدرك مستقر اليقين."

الشيخ محمد نقري